تاريخ استقبال المقال: 2014/12/28 تاريخ قبول نشر المقال: 2015/05/2 تاريخ نشر المقال: 2015/12/01

الفضاء المديني ولعبة الاندماج الاجتماعي
المدينة التاريخية "الحفصية " نموذجا

د. شهاب اليحياوي
وزارة التربية تونس

ملخص:

هذا المقال مستخلص من دراسة سوسيومورفولوجية قمنا بها حول : توزيع الفضاء المديني والتغير الاجتماعي : مدينة الحفصية نموذجا . اتجه البحث إلى مقاربة الفضاء المديني من زاوية الاستعمال الذي تقيمه الذوات الاجتماعية التي تتحرك وتحي وتتفاعل ضمن وعبر الفضاء المديني وتتواصل مع الآخرين ومع ذواتها عبر الفضاء كلغة تخاطب رمزي بين الهويات الثقافية للمكان وكقناة تواصل اجتماعي يتّخذ منحى رمزيا . وهو يذلك يعمق البحث في المعطى الثقافي مقاربة الفضاء المديني اليوم وما تفرزه ديناميكية التفاعل الرمزي والسوسيو–ثقافي من توجيه لمورفولوجية ومعمارية فضاء المدينة العربية الاسلامية اليوم من ظواهر لعل اهمها ذلك التداخل بين الريفي والمديني وبين التقليدي والحديث والازدواجية واضحة المعالم على صعيدي الجمالي والفني والمعماري .

Urban space and the game of social integration

Abstract :

This article is extracted from our study Socio morphology the about: the distribution of urban space and social change: Hafsid city model. Find tended to approach from the perspective of urban space hosted by the use of social selves that move and live and interact within and across urban space and communicate with others and with itself through space as a symbolic address the cultural identities of the place and social channel continues to take a symbolic turn. A humble deepens Search given the cultural approach to space urban today and what is produced by a dynamic interaction symbolic and socio - a cultural guide to the morphology and architectural space of the city Arab Islamic day of the phenomena Perhaps the most important of the overlap between the rural and urban and between the traditional and the modern, duplication and clear on both the aesthetic and artistic and architectural.

مقدمة

نستدعي، ضمن هذا المبحث : الفضاء الخاص الذي هو المنزل أو الدار. ونطرح العلاقة بين الفاعل وفضائه الخاص على صعيدي: التمثّل والممارسة داخل فضاء مديني تقليدي يسمى الحفصية او الحارة 1. حيث أن هذا التمشي التحليلي يسمح بتفكيك أبعاد ومستويات كل بعد من أبعاد إشكالية البحث وصياغة فرضيات عمل تتّصل بكلّ مستوى يتمّ مقاربته . تتّصل الفرضية الأولى الكبرى بتبادلية التأثير بين الفضائي والاجتماعي وتشكّل الدار مجال تمظهر تبادلية التأثير . ونفرّع الفرضية الأخيرة إلى جملة من الفرضيات : الفضاء الخاص هو قناة تواصل ثقافية واجتماعية أي تواصل مع الذات المستعملة للفضاء المشغول مع ذاكرتها وتصوّرها وتمثّلها للفضاء الخاص من ناحية ومع المجتمع أي الفضاء الاجتماعي، حيث تمثّل واجهة الدار مجالا لرسم صورة عن الفاعل المعطاة للآخر والتي لا تنسجم بالضرورة مع صورته لذاته كما تفهم وتؤوّل من الاستعمال أو التوظيف للداخل . ننفذ، من هذه الفرضية، إلى فرضية أخرى وهي أنّ تعاطي الفاعل للداخل الخاص من فضائه يخضع للتمثّل وللذاكرة في حين يتجسّد الظاهر منه (واجهة الدار) البعد القصدي والعقلاني في فعله أي استراتيجية اندماجه في فضائه العام. لا تتّصل هذه الأولوية بفئة دون أخرى بل يمكن تعميقها افتراضيا. كما ننطلق أيضا من فرضية متّصلة بالسابقة مفادها أنّ واجهة الدار يتّخذ عبرها سلوك تعديل الفضاء معماريا وجماليا، دلالات اندماجية أي اجتماعية في حين يحيل في بعده الداخلي رمزيا إلى الثقافي أي التمثّلات والتصوّرات

نقارب، علاقة الفاعل لفضائه الخاص عبر مضمون فعل تدخّله في فضائه الخاص بالنظر إلى الأبعاد المعمارية والجمالية وعلى صعيدي: واجهة الدار التي منها شرفتها والداخل إلى جانب مورفولوجية هذا الداخل

نستدعي، في تعقّل هذا الفعل الرمزي، متغيّرات الأصول الفضائية والمستوى المادي وأقدمية الوجود بمنطقة " الحفصية " والجنس ، ثمّ نقارب تمثّلاتها لفضائها الخاص الذي هو المسكن أو المنزل أو الدار كخطوة ثانية نحو مقاربة تصوّر وتمثّل كل جماعة اجتماعية والدلالات الرمزية والاجتماعية لفعلها في فضائها بالنظر للأصعدة المذكورة .ولا نستند ، هنا ، فحسب إلى نتائج التحليل الحاسوبي للبيانات المحصّلة عبر تقنية الاستبيان بل ندمج ما دوّناه وفريق العمل من ملاحظات ميدانية مفتوحة وأخرى مقنّنة ، إثراء وتعميقا ولكن أيضا كمادّة لفهم وتأويل مقاصد المستجوبين من فعلهم في فضائهم الذي هو فعل في صورتهم لدى الآخر وليست بالضرورة فعلا في ذاتها أو تمظهر ماديّ لتغيّر مفاهيمها وتصوّراتها . فما تفعله الذوات الاجتماعية يستجيب لعناصر الوعي/ اللاوعي/ المادي/ والرمزي في الفعل الاجتماعي.

يستند التحليل، في هذا المجال المبحثي، المقاربة التزامنية synchronique أي تناول المدينة كما تنعكس في ذاكرة وتصوّر الجماعات الاجتماعية التي تحيي ضمنها وتحيي معها المدينة كما يقول لادروت. ويستدعى، ضمنه، كل من العلاقة بين الفاعل وفضائه الخاص أي الاستعمال الذي تقيمه الجماعات الاجتماعية لفضائها الخاص وأبعاده الخارجية (واجهة الدار) والداخلية (داخل الدار: الفارغ والمبني) بالنظر إلى مستويات: المعماري والجمالي والرمزي لهذا الفعل في الفضاء.

1- جدلية الداخلي والخارجي : تنافذ التقليدي والحديث

إذا أخذنا مثلا شرفة المنزل ذو الطابق العلوي أو شقّة بعمارة، ينتهي بصر المارّة {الآخر/ الشريك في الفضاء} بأنهج وشوارع الأحياء القديمة أو الجديدة من منطقة " الحفصية " بحاجز بصري من قماش أو حصير أو بلاستيك أو الخشب المشبّك في أوجهها الثلاثة. وقد خلق ذلك مظهرا يتّصف بكونه خليطا لا متجانسا من الأشياء والمواد والألوان. إنّنا أمام فعل في مظهر أو هيئة الفضاء الخارجي يتجاوز بعده المادي أو أسبابه المادية الظاهرة. ويلاحظ هذا السلوك الفضائي ضمن أنماط مختلفة من السكن: أي الدور التقليدية أو الحديثة وداخل الأحياء التاريخية أي التقليدية أو الجديدة منها. يتزايد ويتكاثف هذا السلوك أو هذه النزعة كلّما تدرّجنا نزولا في سلّم التراتب الاجتماعي: من الأكثر إلى الأضعف حظّا ماديّا، في مقابل تراجع تواتر هذا السلوك كلّما انتقلنا من الفضاء التقليدي إلى الفضاء الخليط {تجاور وتداخل التقليدي والحديث} إلى الفضاء الحديث. وتتمثّل نزعة تحويل هذا الفضاء {الشرفة} المتخارج عن الداخل والمكشوف بدرجات مختلفة على الخارج إلى فضاء داخلي، في وظيفيته لا ماديته، أو هو ملحق بالداخل عبر صياغة حاجز إدراكي أو فاصل ماديّ يعزل شاغله ومستعمله عن مدى إدراك الآخر، يحوّله من ظاهر إلى مخفيّ ومن معلوم إلى مجهول. يؤهّل هذا الفعل {فعل الاستعمال} الشرفة ماديّا لإحتواء مضمون وظيفي مسقط عليها، يماثلها وظيفيّا مع داخل تقليدي موجود أو غائب في نمط السكن العمودي أو هو ملحق به في الفضاءات التقليدية ذات الوسط الفارغ {حوش أو وسطيّة}.

تمارس، في هذا الفضاء الضيّق، المرأة وهي جالسة أو منحنية الجسد أعمالا تكميلية: غسل الثياب ونشرها أو الجلوس طلبا للراحة أو لتبادل الحديث مع البنت أو الجارة في قطيعة مع مدى إدراك الآخر الأليف أو الغريب. يمارس هذا الفعل ذو الأساس الثقافي المتّصل بالقيم والمثل الأخلاقية المصنّفة لحركة جسد المرأة إلى مباح ومنبوذ مسموح ومرفوض بالنظر إلى المكان أي الفضاء، فعلا ماديا أو جماليّا لكنّه رمزيّا على الفضاء الحديث بالذات. فهو من ناحية يؤنّث غير المؤنّث في الأصل، يعيّن غير المعيّن، يخصّص غير المخصّص أو هو يعيد ترتيب الداخل والخارج من الفضاء لا ماديّا بل رمزيّا عبر فعل الاستعمال وتجسّداته الماديّة والجمالية على الفضاء الخاص منه على المظهر الجمالي للفضاء المديني غير القابل للمراقبة [2] .

فالشرفة تظلّ في مكانها المتخارج ماديا ولا تتبدّل لكنّ الذي يتغيّر ويغيّرها من خارج إلى داخل هو الممارسة أي الاستعمال الذي يتغاير بين الجنسين ومنه يتّخذ الفضاء / نفس الفضاء مظهرين متغايرين. وقد وقفنا، عند تعمّدنا زيارة الأنهج التي لاحظنا فيها هذه الظاهرة في أوقات مختلفة من اليوم لفترات متعدّدة، على ظاهرة هامّة جدّا: إنّنا أمام مظهر متحرّك لا ثابت للفضاء. فالفضاء وان كان ثابتا ماديّا لكنّه يتغيّر أو هو يتبدّل. فهيئته أو مظهره يتغاير بالنظر إلى متغيّر الزمن في صلة وثيقة بالاستعمال وجنسيته (إناث / ذكور): ولا يستجيب هذا التغاير لعوامل المناخ بقدر ما يستند إلى فعل الاستعمال والمستعمل بالنظر إلى الزمن (صباح / مساء / ليل).

تتخّذ الشرفة مظهرين مختلفين في زمنين متباعدين من اليوم. فهي تنتقل من الانفتاح {إزالة الحاجز المادي} إلى الانغلاق {إعادته} ومن الظهور إلى التخفّي، من المعلوم إلى المجهول ومن الامتداد الأفقي إلى العمودي. فحينما تنشغل المرأة بالداخل في أوّل النّهار تكون الشرفة منزوع حاجزها ومفتوحة نوافذها

وحين تتّجه إلى أعمال تكميلية أو طلب الراحة في مكان مهوّى ومشمس {الانتقال من الرطب إلى الجاف من الفضاء}. يكتسي هذا المكان مظهرا مغايرا وينتقل من الظاهر إلى المخفيّ ومن الانفتاح إلى الانغلاق. فكأنّ المكان يتعرّف على صاحبه ويتأقلم من أجله ولأجله حتى يكون مهيئ لأن يستمرّ تواجد مستخدمه ضمنه.

يصبغ هذا السلوك الذي يطوّع المكان وحتى الفراغ إلى قيمه ومعاييره ومثله أي ثقافة المستعمل، المظهر الجمالي لواجهات الأبنية العمودية وذات الطوابق العلوية وبالتالي المظهر الجمالي للفضاء المديني اليومي. فلو أخذنا الأحياء الجديدة {ما بعد 1973 م} التي أريد لها أن تكون نموذجا موحّدا للسكن والمعمار والمورفولوجيّة ومظهرا جماليّا متجانسا على صعيدي التخطيط والإنجاز، نجد أنّه يتّخذ بفعل الاستعمال مظهرا مغايرا يتباين بالنظر إلى متغيرات الموقع الفضائي ونمط السكن والمستوى المادي بشاغليها. فالفئة الاجتماعية المحظوظة ماديا تنزع إلى مظهرة تميّزها ورتبتها الاجتماعية عبر واجهة المسكن . التي منها الشرفة . حينما يتّصل وجودها بالفضاء التقليدي أين تتعدّد وتتقابل دور تقليدية وأخرى حديثة، قديمة وأخرى مرمّمة أو تتعدّد الأصول الفضائية والرتب الاجتماعية لشاغليها.

لكنّ ما يلاحظ هو نزعتها في الغالب إلى المزج بين الأصالة والحداثة، التقليدي الأصيل والجديد المستحدث على مستويي المواد والفنّ التزويقي للواجهات. أمّا إذا اتّصل وجودها بالبناءات الفردية أو الجماعية الجديدة، فإنّ ما نلاحظه هو اتّجاهها إلى إعادة إنتاج الموحّد والمشترك معماريا وجماليا أي الحفاظ على المظهر ذاته، في سياق يعيد إنتاج تجانس ووحدة معمارية وجمالية.

فكلّما تواجدت الفئة المحظوظة ماديا في فضاء تختلف معه تنزع إلى مظهرة اختلافها ورتبتها الاجتماعية على واجهة الدار، في حين تتّجه إلى التماثل مع الآخر المجاور أو المقابل والمساوي لها اجتماعيا. فإذا نظرنا إلى المجمّع السكني المجانب للسوق على نهج "سيدي بوحديد" أو المحاذي لنهج «مدنين " والذي يفتح على نهج " سيدي بوحديد " عبر مدخله الحامل لتسمية نهج " روبين" والمنفتح على " نهج الغرياني" المتفرّع عن نهج " مدنين " ، نلاحظ التجانس في واجهات الشقق (ألوان جدرانها وشبابيكها وشرفاتها المحافظة على تماثلها منذ بعثها سنة 1973م ثمّ سنة 1981م) . لكن الملاحظة أيضا هو أنّ هذا المركّب التجاري والسكني المفضي خلفا إلى نهج مدنين عبر نهج الغرياني مثلا يكشف عن وجهين: نسجّل ضمن الوجه الأوّل نزعة التمثل وهو المطلّ على شارع " سيدي بوحديد ، في حين أنّ الجانب المنفتح على نهج "مدنين " أين تختلط أشكال المباني وحالتها ومعماريتها والانتماء الاجتماعي لشاغليها يكشف عن سلوك البعض من شاغلي هذا المركّب مظهرة تميّزها الاجتماعي على واجهة المسكن أي عنونة الواجهة مجتمعيا كشكل دلالي تواصلي مع الآخر عبر واجهة الدار. يمسّ فعل التدليل الفضائي على المكانة المجتمعية للذوات الاجتماعية ، واجهة الدار: تجديد الأبواب وجعلها أكثر فخامة وتجميل إطار النوافذ والباب إلى غير ذلك .

تتّجه الشريحة الأكثر حظّا ماديّا والتي تشغل فضائها الخاص ضمن الأحياء القديمة للمدينة التاريخية إلى انتهاج سلوك فضائي يجمع بين التحديث والتأصيل للدار في واجهتها مثلما في معمارها. ففي حين تحافظ على الشكل التقليدي للباب مثلا مع تجديد مادته وصبغته أو لونه تعمد إلى تجميل إطاره وأرضيته الأمامية (العتبة) بشكل فنّي مغاير لا يتّصل بالشكل القديم. فهي بذلك تهدف إلى التجسيد المادي لرتبتها

الاجتماعية أو لارتقائها الاجتماعي ، على الفضاء المشغول في ظاهره المعطى لتأويل الآخر أي تهدف إلى تقديم صورة للآخر الأهلي (أهل الحي أو أهل النهج) أو العابر أو الغريب مثلما يرضيها أو مثلما تريد لا مثلما تفرضه المكان أو النظرة الأخرى له. وتتوسّط الواجهة أو المظهر الخارجي للدار بين شاغلها وقارئها باعتبارها تستحيل بهذا المعنى عنوان للمكانة الاجتماعية مثلما هو معطى لقراءة وتأويل اندماج شاغليها في فضائهم المديني. فالفضاء لغة يتكلّمها الناس رمزيا ويتواصلون عبرها وبها مع ذواتهم ومع الآخرين. فلسنا أمام تواصل خرس بل لغة يقتضي فكّ رموزها وفهم مدلولاتها المعرفة بالفاعل الاجتماعي الذي يبثّها ويوجّه رسائلها المشفّرة ماديّا وجماليّا ومعماريا.

أ – نزعة العنونة الاجتماعية لواجهة الدار

يقلّ تواتر نزعة التغاير والاختلاف الفضائي ضمن الأحياء كلّما صعدنا في أقدمية التواجد ضمن المنطقة. "فالأقدم احتلالا لدورهم وفضائهم التقليدي من المدينة التاريخية أقلّ نزعة إلى التباين والاختلاف على صعيد الفضاء.

فهي تستبدل اظهار تميّزها واختلافها عبر الجوانب المعمارية أو الجماليّة بالشرعية التاريخية لانتمائها للمكان أو هي جزء من تاريخ هذا المكان. فهي لا تحتاج لأن تقول رمزيّا عبر الفضاء مكانتها الاجتماعية لأنّها ببساطة مرسومة في أذهان الناس، أمّا الأقلّ أقدمية في الفضاء المشترك والذين شغلوا دورا {معلميّة} أي دورا لبرجوازية المكان بالأمس والذين غابوا عن المكان ماديّا لكنّهم حاضرين في تاريخ المدينة المعلوم منه والمتداول الموثّق منه أو المروي ، فيعمدون إلى بلورة هذا الفضاء ليصبح خاصّا أو له مدلولا خاصّا. هم لم يغيّروا المعمار ولا تاريخه بل أضافوا ما يحيل إليهم والى ذوقهم وتصوّراتهم والى صورتهم لدى الآخر التي يريدون رسمها فضائيّا وماديا أي دلاليّا وبالتالي تدوين الفضاء رمزيا. فحينما يضعف الاندماج الاجتماعي يقوى توظيف او اعتماد الفضاء كجسر تواصلي ضمن فضاء المعاش اليومي. فالتستّر الفضائي عبر أي" فاصل مادي بين الخاص والعام / الداخلي الخصوصي والمشترك، هو فعل ثقافي رمزي. وهو سلوك قصدي مفتعل لكونه يفتعل المنتج لأنّه يغيّر القائم أو الحاصل في هيئة أو مظهر أو معمار الدار أو بعده الجمالي. فأن يمدّد الفاعل عموديا السور الأمامي للدار التي تسلّمها بامتداد متوسّط للسور، هو رفض لنوعية العلاقة المعطاة أو المملات بين داخل وخارج متنافذين لصالح فكرة أنّ الداخل خاص وكلّ خاص مقدّس وكلّ مقدّس هو حرمة. هذه الحرمة للداخل هي ثقافة الشاغل التي تتعيّن ماديّا في هذا السلوك. فأن يتّجه الشاغل إلى خلق حاجز مادي/ بصري للشرفة أو عبر تعلية سور الدار أو على الشبابيك المطلّة على الشارع هو سلوك ثقافي يحيل إلى قيم ومعايير وتصوّرات وتمثّلات ولكنّه أيضا سلوك اجتماعي يحيل إلى أسلوب اندماج الذات الاجتماعية ضمن العام الذي هو الفضاء المديني، يتداخل ضمنه الواعي باللا واعي.

لا يفضي الخارجي من فضاء الدار، دائما، وآليّا الى داخله. فهذا ما لا نقول به ولكن جدلية الداخل والخارج تخضع لميكانيزمات أو إوالية تحيل إلى ارتباط بين صورة الظاهر من الفضاء الخاص – واجهة أو وجه أو المظهر الخارجي للدار وصورة شاغله لذاته ولفضائه اليومي –. ويشتغل الخارجي من الفضاء الخاص أو الظاهر من المخفي، كقناة تواصل بين شاغله وفضائه المشترك (المدينة) وبالتالي يتحدّد بهذا التواصل وطبيعته وهو ما بيّناه عبر الفئة المحظوظة ماديّا بين وضعيتين مختلفتين وفضائين مختلفين.

إنّ الفضاء المديني، بهذا المعنى مسرح تزدوج وتتعدّد أدوار لاعبيه أو بعبارة أدقّ تزدوج أبعاد أدوار الفاعلين ضمنه[3]. فصورة الواجهة كمؤشّر على الصلة الدينامية والتبادلية بين الفضائي والاجتماعي وبين الداخل والخارج هي جدلية الذاتي والخاص والعام والمغاير. فأن نتغاير مع المغاير أو نتماثل مع المشابه أو نشابه المغاير ونتغاير مع المشابه عبر هذا السلوك الجمالي الممارس على واجهة الدار ومدلوله الرمزي، هو أسلوب تواصل مع المشابه أو المغاير أو التكيّف مع الدائم أو الجديد. فالفضاء هو" صلة عينية بين وجودي والعالم الذي يحيط بي" [4] وفضاء للّعب ولمظهرة ، لا فحسب ، رتبته الاجتماعية بل افتعال هذه الرتبة أي يتّخذ بعدا تضليليّا لا يتّصل بالموقع الاجتماعي لشاغله بل أيضا نمط حياته ضمن داخل هذا الفضاء الذي يتّخذ لدى البعض وجهين : خارج معطى للآخر لا يمظهر ولا يعكس دائما أو بالضبط داخل يظلّ ذاتيّا وخاص يتّصل بالثقافة الجماعية وتصوّراتها للفضاء ، لا يندرج أو لا يؤطّر هذا السلوك في ما تسمّيه بوشرارة زنّاد بممارسات المقاومة التي تبديها الذوات الاجتماعية عبر الفضاء واستعمالاته بل هو سلوك أو فعل اجتماعي يحيل إلى تصوّر خاص للاندماج الفردي والجماعي ضمن الفضاء الجديد أو ضمن التحوّلات التي استوعبها الفضاء الذي تشغله الذوات منذ زمن معيّن. لسنا أمام ممارسات مقاومة فحسب بل يتداخل ضمن هذا السلوك الفضائي رفض التهديد الذي يحمله الاختراق الريفي للفضاء المديني من دفع للأشكال التقليدية لشغل واستعمال الفضاء الخاص والعام/الداخلي والخارجي وتمظهراته المعمارية والجمالية والاجتماعية للتصوّر الذي تحمله الذوات الاجتماعية أو تتمنّاه أو تعمل على ترويجه عبر فعلها في فضائها حول مستقبل الحي التقليدي أو يحمله الجديد لهوية الحي التقليدية والتاريخية الذي هو تهديد لهويات الجماعات المشكّلة لبنيتها، مع التوجيه غير الواعي للسلوك الفضائي.

فثقافة الجسد، في صلة بالفضاء، تطرح على مستوى اللاوعي أكثر منه الوعي. تتعلّق بالموروث المستبطن والموجّه للتأثيث الجسدي للفضاء أي حركة وانتقال الجسد ضمن وعبر الفضاء التي يتكيّف معها الفضاء في توزيعه الوظيفي – الاستعمال – وهيئته ومظهره الجمالي مثلما بيّناه سابقا عبر شرفة الدار أو المسكن. إنّنا أمام تبادلية بين الفضائي والاجتماعي تتداخل ضمنها استراتيجيات اندماج دفاعية ولا تحيل دائما إلى جماعة اجتماعية معيّنة. فيحصل أن تتراوح استراتيجية فاعل الاندماجية بين مسايرة التغيّر والتواصل مع الماضي التقليدي الذي هو ماضي الذات، يختلف توزّعه بين الداخل والخارج من جماعة إلى أخرى. يتداخل الحديث (نمط السكن ومورفولوجية الحي والأشكال المعمارية والجمالية ذات المرجعية الأوروبية) والتقليدي (اي المميز للمعمار العربي الاسلامي) في الظاهر من الفضاء الخاص مثلما الخفيّ منه أي الداخل لدى الجيل الثاني من سكّان منطقة " الحفصية ". تحمل هذه الجماعة التي يشكّل التقليدي على مستوى الخاص والعام الفضائي والاجتماعي ذاكرتها، مشروع تأويل واستيعاب للجديد لا يصنع القطيعة مع الذاكرة أي الماضي المتجسّد في الممارسات الجسدية والفضائية، بفعل اتّساع وتخارج جغرافيا حركة وانتقال جسدها في الفضاء أي خارطة فضاء نشاطها وتفاعلاتها المجتمعية [5]. يتكيّف هذا المشروع مع الجديد في نفس الوقت الذي يتّخذ منه مسافة فاصلة.

إنّ استيعاب التقليدي للجديد هو شكل من أشكال التكيّف مع التغيير. وهو سلوك استراتيجي لكونه لا يتّصل بالجديد ذاته بقدر ما يشكّل وسيلة لتشكيل الخطاب الفضائي الذي هو خطاب مجتمعي عبر سيميائية الواجهة والمعمار والفعل الجمالي في الفضاء المادي الذي يستحيل إلى فعل رمزي تواصلي.

ويتغاير تواصل التقليدي مع الحديث أو العكس بين الداخل والخارج وبالنظر إلى استراتيجيات اندماج الفاعلين في فضائهم المديني العام الذي هو الحفصية هنا. يكشف هذا التنافذ بين الفضائي والمجتمعي عن دلالية ورمزية الفضاء كمنظومة يمظهر ضمنها الفاعل تصوّراته وتمثّلاته وذاكرة الفضاء الجماعية مثلما أهدافه وغاياته وزاوية تمثّله للتغيّر وتكيّفه الاستراتيجي معه. ممّا يعني أن الذات المجتمعية الشاغلة لفضائها ضمن المديني تطرح كفاعل يتّصل فعله ضرورة بالتوجيه القيمي والمعاييري الجماعي لسلوكه مثلما بالمضمون العقلاني لسلوكه الفضائي. يتلقى الفاعل المديني تأثيرات الفضاء الاجتماعي التي تنعكس على فعله في فضائه الخاص لكنّه يصوّر أو يقدّمه كصورة فضائية عن هذا العام/ المشترك، هي في الأصل صورة عنه وعن تصوّراته وعن مواقفه من الفضاء المديني الذي يحيط به.

ب – تداخل التقليدي والحديث ضمن الخارجي والداخلي من الدار

نقف، في هذا المجال البحثي من دراستنا، على اتجاهين متعاكسين للجدلية المستقرأة بين الداخل والخارج في توازى مع التقليدي والحديث لدى متعدّد شاغلي فضاء المدينة التاريخية يتباين ويتغاير في مدى حدّته وكثافة حضوره في السلوك والممارسة الفضائية. فكلّما تدرّجنا صعودا من الأقلّ إلى الأكثر حظّا اقتصاديا من اقدم ساكني المنطقة تقلّص هذا التداخل بين التقليدي والحديث على صعيدي الداخل/ الخاص والخارج/المشترك مثلما بين تقليدية أو حداثة الخارج أي واجهة الدار بأبعادها الجمالي والمعماري والاستعمالي وما هو عليه الداخل أي الاستعمال الذي يقيمه شاغله لأجزائه (غرف) ومكوّناته (أشيائه) . وهو ما يفرض إعادة استحضار ما تمّ ملاحظته من نزعة التغاير ومظهرته فضائيا: معماريا وجماليا على واجهة الدار: سورها، لونها، وهيئته المادية بمعنى امتداده البصري بالنظر إلى داخله والبعد الجمالي لظاهر الواجهة، حيث تضعف هذه النزعة أو هذا السلوك كلّما انتقلنا من التغاير إلى التماثل اجتماعيا بين شاغلي الحي.

أمّا الاتجاه الثاني والمعاكس فيثيره متغيّر أقدمية التواجد لدى الفئة الاجتماعية متوسطة الدخل الأسري: حيث أنّنا نقف بصفة جليّة على اتساع هذا التداخل الملاحظ بين الحديث والتقليدي للواجهة مثلما للممارسة الفضائية ضمن الداخل (الفضاء الخاص) كلّما نزلنا من الأقدم إلى الأقلّ تواجدا ضمن فضاء المدينة التاريخية " الحفصية " .

لا يمكن استنتاج ذلك عبر الاستجواب. لذلك قدّمت لنا تقنية الملاحظة الموجّهة الميدانية اكتشاف هذا التباين الذي يلاحظ بصفة أكثر تواترا لدى الفئة متوسّطة الدخل الأسري من " بَلْدِيَةْ " [6] الجيل الثاني. بين المظهر الخارجي للدار ومورفولوجية الداخل التقليدي، فهي تنزع بفعل ارتقائها الاجتماعي إلى مظهرة ذلك على واجهة المنزل. وتحاول عبر اللون والزينة والشكل تعيين رقيّ ذوقها الذي تعتقد فيه أو تريد أن يعتقد فيه الآخر الشاغل لذات النهج أو الحيّ.

إلاّ أنّ اختراق الحديث لا يقصي نهائيّا أو يصنع القطيعة التامّة مع التقليدي الذي يسجّل حضوره في تداخل مع الحديث على الخارجي من الخاص مثلما الداخل. يتراجع هذا التباين والتدخّل في إتّجاه غلبة الجديد والحديث أي استيعاب الفضاء للتغيير كلّما صعدنا في المستوى المادي ونزلنا في أقدمية التواجد. معنى ذلك أنّه كلّما انتقلنا صعودا في أقدمية شغل الفضاء الخاص والحي كلّما ضعف حضور الجديد والحديث وتعيين ديمومة وتواصل الحاضر مع ماض لا تختزنه الذاكرة فحسب بل تمظهره في سلوك إعادة

إنتاج كيفيات شغل وتوظيف الفضاء واستعماله التقليدي. لسنا أمام تقليدية مفرطة أو غياب كلّي لاستيعاب أقدم أصيلي المنطقة من ذوي الدخل الضعيف والمتوسّط للتحوّلات التي تعرفها الحفصية بل يعرفها كلّ حي وكلّ نهج ولكن ليس كلّ زقاق. الأزقّة هي أكثر الفضاءات المشتركة تواصلا [7] بالماضي معماريا وجماليا وأكثرها استيعابا للقيم الجماعية والطابع الجماعي للحياة الاجتماعية . هنا في هذه الأمكنة الضيّقة التي لا تسمح أحيانا إلاّ بمرور شخص واحد أو تفرض على داخليها أن يصطفّوا الواحد خلف الآخر كأنّهم في استعراض أو هي بذلك تنظّم وتحتوي هذا الاختراق لهذا الخاص المشترك بشكل يحوّله إلى فردي، يتجلّى بوضوح تردّي البناءات واهتراء مادتها وألوانها. فحين تمرّ تجد بناءات مهدّمة تهاوت جدرانها والباقي منها مهدّد في أيّ لحظة بالانهيار. فهي فضاءات تلفظ الداخل إليها إذا كان غريبا لكنّها تحتضن شاغليها حالما يلجون مدخلها: فهي إن أغلق منفذها الضيق تتحوّل إلى بيت جماعي أو وكالة حديثة المورفولوجيا. يفصل بين أبواب المنازل التي تتحوّل إلى غرف لها وسط فارغ، (حوش) بل ممرّ (couloir)، وسط لا يتجاوز عرضه أحيانا المتر الواحد.

إذا كانت طبقة أصيلي المنطقة الأكثر حظّا ماديّا تميل إلى مظهرة تفوّقها كلّما اتّصل ذلك بوجودها بفضاء عام / مشترك خليط اجتماعيا ومعماريا. وهي تنزع إلى التماثل حين تشغل فضاء مديني تشترك أو تتقارب فيه الرتبة الاجتماعية لشاغليه، فإنّ الفئة المتوسّطة ماديّا تبدي سلوكا فضائيا يكشف عن تداخل بين التقليدي والحديث في مظهرتها لتصوّر أسلوب اندماجها وتكيّفها مع تحوّلات الفضاء العام، أكثر وضحا لديها ممّا يلاحظ لدى الفئة المحظوظة. يضعف هذا التداخل مع الفئة الأقلّ حظّا ماديّا مثلما الأقدم تواجدا في فضائها الذي تشغله وتتواصل عبره رمزيّا مع ماض حاضر في الذاكرة والسلوك الفضائي اليومي وتجلّياته العينية.

أمّا " البَلْدِيَة " الجدد [8] فيحملون تصوّرا اندماجيا يتغاير بالنظر إلى نفس المتغيّرات: الرتبة الاجتماعية ونوعية الفضاء المديني (التقليدي – الحديث). إلاّ أنّ الأكثر حظّا منها، اقتصاديا، تختلف مع الجيل الثاني من ذات الفئة المادية في جنوحها إلى التدخّل التحديثي في الفضاء الخاص في الظاهر منه للآخر. ففي حين نلاحظ احتفاظ الجيل الثاني بمعمارية الدار التقليدية في شكلها الجديد ومورفولوجية الداخل رغم بعض التدخّلاتIntervention الجمالية المحدثة على واجهة المنزل، فإنّ شاغلي الفضاء التاريخي ، الجدد ينزعون إلى تغيير مقوّمات المعمار التقليدي للفضاء التاريخي بأشكال مختلفة عنها كاستبدال شكل القوس بالمستطيل أو المربّع ، فيما يتّصل بإطار الباب أو الباب الخارجي ذاته ، أو وضع بطاقة رخامية على إطار الباب أو بلاستيكية أو خشبية على الباب تعيّن Indique هوية شاغل الدار أو غلق الشرفات عبر نوافذ بلورية داكنة تحجب فضاء الشرفة وتحوّله إلى جزء من قاعة الجلوس خاصّة أو غير ذلك ممّا لا تبدو أهميته في ذاته بل في الدلالة التي تضع التحليل أمامها. وهذه الدلالة ثقافية واجتماعية: ثقافية باعتبار كونها تحيل التحليل والتعقّل على ثقافة الجماعة أي شاغلي الفضاء وقيمها ومعاييرها وتصوّراتها ونمط حياتها، واجتماعية لكونها تحيل إلى نظرة الفاعل لفضائه وموقفه منه وللتحوّلات التي يعرفها. فهذا السلوك الفضائي هو سلوك رمزي يتّصل بالثقافي في علاقة الفاعل بفضائه وصورة الفضاء ما بعد الاستعمال الذي يقيمه له الذوات الاجتماعية ولكنّه اجتماعي لكونه معطى لتأويل كيفيات اندماج الفاعلين في فضائهم الاجتماعي وتكيّفهم مع المتغيّرات.

إنّ جدلية الداخل والخارج تضعنا أمام جدلية الفضائي والمجتمعي. فقراءة الفضاء هي تأويل سوسيو ثقافي للاستعمال أي المستعمل الذي هو شاغله أي الفاعل الاجتماعي الذي يتلقّى تأثيرات الفضاء الاجتماعي لكنّه يتواصل معه عبر منظومة رمزية دلالية.

2 – الدلالات الرمزية والاندماجية لفعل بلورة الفضاء

يتعمّد أصيلي منطقة " الحفصية " الجدد ادخال ترميمات كليّة للمسكن سواء قبل أو بعد شغله. ولا يعني الترميم الكلّي الذي أدخلته على فضائها إعادة بناء أو تجديد مورفولوجيته التقليدية نحو نمط حديث كلّي بل المقصود أنّ فعل البلورة شمل كل الفضاء السكني بأشكال مختلفة. لكن حينما نصعد في أقدمية التواجد بالحفصية وبالفضاء المحتلّ ضمنها نلاحظ أن هذه الصبغة (البلورة لكل الفضاء الخاص) تتقلّص لتصل درجة الصفر لدى أقدم" بَلْدِيَةْ " الحي المديني. تتّفق هذه النتيجة مع ما انتهى إليه التحليل سابقا، أنّه كلّما تدرّجنا نزولا في أقدمية التواجد تصاعد أو تكثّف فعل بلورة فضاء السكن.

لا تنزع الفئة الأضعف ماديّا إلى البلورة التّامة لكل المسكن أي أن يشمل فعله في الفضاء كلّ أبعاده المدية والمعمارية والجمالية، بل يقتصر على واجهة الدر أي المظهر الخارجي للدخل الخاص وتوسّعه في غرفة النوم أي الأكثر خصّا أو المقدّس من هذا الدخل الخاصّ. وهي، بذلك، تلتقي مع الفئة المتوسّطة في رفض تغيير المورفولوجية التقليدية للدار أي أنّه لم يقع ذكر تحويل وسط الدار التقليدي إلى غرفة لدى هاتين الفئتين إطلاقا على عكس ما نسجّله لدى الأكثر حظّا ماديّا، حيث يسجّل هذا البعد من الفعل في الفضاء الخص أكثر الأبعاد تناولا بنفس الدرجة أو النسبة المئوية لتغيير الباب التقليدي بآخر حديث. تتوافق هذه النتيجة مع ما سبق الوقوف عليه من حيث نزوع الفئة الأكثر حظّا ماديّا إلى مغايرة فضائها التقليدي في اتجاه تجديدي وتحديثي يشمل واجهة المنزل مثلما عمقه التاريخي أي مورفولوجيا الداخل إذا تعلّق وجودها بفضاء تقليدي ضمن حيّ تتداخل ضمنه المراتب الاجتماعية والأصول الفضائية لشاغليه.

ما يلاحظ فعلا هو أنّ الفئة الأعلى دخلا هي الأقلّ نزوعا أو ميلا لإخضاع كلّ الفضاء الخاص إلى فعل البلورة وأنّ أعلى نزعة في هذا السياق تسجّل لدى الفئة متوسّطة الدخل في ظلّ غياب كلّي لهذا الاتجاه لدى الأضعف دخلا أسريّا من عيّنة البحث.

تمثّل غرفة الجلوس والاستقبال أكثر الوحدات الفضائية للداخل انفتاحا على الآخر أو الوافد وبالتالي أكثر فضاءات الدخل مظهرة للمستوى المادي لشاغله لذلك ليس من الغريب أن ينتهي البحث إلى معادلة: أنّه كلّما تدرّجنا صعودا في المستوى المادي لشاغلي فضاءاتهم الخاصّة كلّما تتكثّف نزعة مظهرة المكانة المجتمعية للذوات الاجتماعية. فالفئة الأضعف دخلا هي الأقلّ ميلا لتحسين وبلورة أوّل وأقرب فضاءات الداخل لتقديم صورة عن المكانة المجتمعية والحالة المادية له. قد يفسّر ذلك بعد اقتدارها المدى ولكن أن تدخل بلورة على فضائها الخاص فهي تضع سلّم أولويات لهذا الفعل وبالتالي يصبح ترتيب التدخّل الفضائي من ناحية ووظيفته التواصلية والرمزية من ناحية أخرى ذو دلالة تتجاوز التفسير المادي البسيط للظاهرة. وما يؤكّد حكمنا هو ما يلاحظ من توافق لهذه النتيجة مع ما توصّل إليه البحث في مجال أقدمية التواجد بالحفصية وفعل بلورة فضاء السكن، حيث بيّنا أنّ أقدم " البَلْدِيَةْ " يشعرون أنّهم يزدادون عزلة عن العام / المشترك مع كلّ تحوّلات سوسيو فضائية تعرفه الحفصية. هذه التحوّلات التي تعجز أو ترفض أن تتكيّف وتندمج معها. يقوّي ضعف اندماجها هذا ألفتها بفضائها الخاص والتمسّك بصلته المادية

والرمزية بصورتها لذاتها لفضائها. قد تفسّر هذه العزلة وندرة التزاور أي تبادل التكشّف على الخاص كتعبير أو تمظهر مادي لضعف اندماجها في فضائها المشترك الأقرب إليها أي الحي أو النهج. ترتيب الأولويات في فعل بلورة الداخل الذي تقيمه والذي يعطي، بذلك أهمية لأكثر وحدات الداخل الفضائية خصوصية على حساب الفضاء/ الواجهة المجتمعية لشاغلي الدار التي تستقبل لكنّها تشكّل نقطة عبور نحو الأكثر خصوصية من الداخل. هنا نستقبل الآخر الأهلي أو الغريب وهنا ينتهي اختراقه لهذا الدخل/الخاص أو عبره يمرّ إلى الأكثر خصوصية وبالتالي حميميّة (الحوش، بيت القعاد...).

نعود إلى سكّان منطقة " الحفصية " الجدد لنشير إلى نتيجة أنّ أكثر أجيال الحفصية نزعة إلى مظهرة رتبتها الاجتماعية وتغايرها الذي يجمع بين التوصل مع الامتداد أو الطبع التاريخي للفضاء العام / المشترك واستيعابه للجديد والحديث خاصة لدى أصيلي " بَلْدِيَةْ " المدينة التاريخية الذين كانوا يشغلون دورا عبر التسويغ. وتمثّل الحفصية بعد التهيئة، أرضية مناسبة للجمع بيت التأصّل والحداثة. فهذه الفئة لم تسعى إلى تعمّد التقليص من الحاجز البصري الذي هو سور الدار لكنّها وإن عمدت إلى تعليته فإنّها حافظت على فتحاته أي على ما يشكّل منفذا بصريا نحو الداخل الفاصل بين الباب الخارجي ومدخل الدار. فهي بذلك تراوح بين الانفتاح الكلّي والانغلاق الكلّي فمعها يمكن الحديث عن مفهوم الانفتاح الحذر والانغلاق المرن الذي يموضعه وسطيّا بين القدسيّة التّامة للدخل الخص المميّز لمعمارية الدار التقليدية في واجهتها التي تنغلق على الدخل وتخفيه تماما عن الخارج أي الآخر وبين الانفتاح المميّز للمعمارية الحديثة في شكل المنازل ذات حديقة أممية وسور يفصل بينها وبين الخارج لا يتّخذ دلالة الحاجز أو العازل أو المنع الرمزي بقدر م يشكّل تعيين مادي للفواصل الفضائية بين المتقابل والمتجاور من المساكن.

إذ كان السور ضمن الدور الحديثة لا تتجوز دلالته البعد المادي والجمالي فإنّها تتخذ مضمونا رمزيّا ومجتمعيّا ضمن نمط السكن التقليدي. فالفعل الذي تمارسه الذوات الاجتماعية على شكله قبل أو بعد شغله يتّخذ بعدا رمزيّا ودلالة اجتماعية يستندن إلى تصوّراتها الفضائية من ناحية وموقفها من الفضاء المديني المحيط بها من ناحية أخرى. وما يؤكّد هذا الاستنتاج لدينا هو مدى التوافق الذي نجده بين المضمون التقليدي لبلورة فضاء السكن واتجاه تعميق الوظيفة الحاجزية أو العازلة للسور أي مزيد تعليته وغلق فتحاته الموجودة. فهذا التوازي بين السلوكيين هو دعامة تحليلية لتأكيد دلالية هذا السلوك خارج ماديته خاصة مع خطّ أقدمية التواجد بالحفصية حيث نسجّل خطّا تصاعديّا في تواتر هذا السلوك لدى أصيلي منطقة " الحفصية " سواء الجدد أو الأقدم تواجد. ينسحب ذلك على عملية التمديد العمودي للسور كحاجز أو عازل مادي ذو دلالة اجتماعية ورمزية مثلما عملية غلق المنافذ فيه.

يتعلّق سلوك أو خلق الحاجز بالمساكن ذات الحديقة الأمامية. أمّا المنازل التي تشكّل واجهتها كما يقول chevalier أسوار تغلق على الداخل وتشكّل معابر الأزقّة [11] والأنهج ضمن الأحياء القديمة من الحفصية ، فإنّ الملاحظة الميدانية المباشرة تضعنا أمام نفس الارتباطات بالنظر إلى متغيّر أقدمية التواجد بالفضاء التاريخي " الحفصية " والمستوى المادي للأسر . لكن مع أشكال أخرى تتجلّى عبر ما رأيناه في الفقرات السابقة حول شرفة المنزل أو نوافذها أو أبوابها، حيث يستبدل تعلية السور أو غلق فتحاته بتعلية النوافذ بحيث تتجاوز قامة المّار في الشارع فتصبح بعيدة عن مدى بصره أو الاتجاه إلى وضع لوحة مشبكه أسفل النافذة ما بين البلور والحامي الحديدي أو تعمّد أن يكون الباب ذو جانبين بحيث يظلّ الواحد

موصدا دائما والآخر يفتح حين الدخول أو الخروج بشكل يضيّق الامتداد الزمني لبصر العابر وإدراكه البصري للداخل بما يتعلّق ضمنه بالمقدّس والحرمة المتّصلة بسريّة الداخل أو حركة جسد المرأة وانتقالها داخل وبين أجزائه المكوّنة له.

3 – الانفتاح الحذر والانغلاق المرن : استراتيجية اندماج وتواصل

إنّ تاريخ وتقاليد الجماعة كما يقول " لاباس " La basse التي هي تاريخ " وتقاليد المدينة" [12] تتعيّن في الجمالي مثلما تؤثّر على السلوك المديني وتفسّر أشكال التواصل مع الفضاء الخاص الذي هو الدار. يستدعي هذا التواصل ، في اللحظة ، تاريخ الذات مثلما تاريخ المكان [13]. هو تواصل مع الذات يتمظهر ماديّا وجماليا وبالتالي رمزيّا في ما أسميناه بالواجهة أي الوجه أي المعطى للآخر أو هو مشهد يصيغه شاغل الدار بالنظر إلى مخزونه أو الإيتوس Ethos أي روح الجماعة أو روح ثقافة الجماعة [14]. هذا ما أثرناه في الفقرات السابقة بالنظر إلى جملة من المتغيّرات. لكن ما نستدعيه هنا هو تساؤل إشكالي سبق طرحه نظريا وفيما يتّصل بإشكالية العلاقة بين الفضاء المديني وشاغليه يتعلّق بالجانب العقلاني في السلوك الفضائي للفاعلين الاجتماعيين. على أنّ القصد من عقلانية الفعل في الفضاء هو البعد القصدي للتدخّل في معمارية الدار: في أشكال الزخرفة الفنيّة التقليدية للدار التي تقع في الأحياء القديمة منطقة الحفصية أو الحديثة في المساكن المشيّدة منذ 1973م إلى اليوم مثلما في مورفولوجيته .

هناك تداخل بين التواصل مع ماض تختزنه الذاكرة في الفضاء والتواصل مع الآخرين عبر هذا الجزء من الدار أي الواجهة [15]. ويتغاير هذا التداخل ويتّخذ أشكالا متعدّدة بين أجيال "بلدية" الحفصية وبين فئاتها الاجتماعية وحتّى بالنظر إلى نمط الفضاء الذي يشغله من الحيّ. السؤال الذي يطرح نفسه إذا هو ما الذي يفسّر هذا التغاير في أشكال التمفصل بين الداخل والخارج ؟ تنزع الفئة الأكثر حظّا من "بَلْدِيَةْ " الأحياء القديمة للحفصية على غرار الجيل الثاني خاصّة ، كما أسلفنا، إلى إعادة إنتاج التقليدي والتاريخي الذي يشكّل هوية المكان والذات في انفتاح على الأشكال الفنيّة والجمالية لزخرفة الوجه الخارجي للدار. وعند اختيار عاملية متغيّر الألفة بالفضاء أي أقدمية التواجد بالعبارة المستعملة وقفنا على التراجع الحديث لفائدة التقليدي مع كلّ صعود في سلّم أقدمية التواجد بالحفصية. قد يبدو ذلك بديهيّا، إلاّ أنّ أي نتيجة هي دالّة حتّى وإن اتفقت مع المعلوم أو المشترك أو المتداول فهمه. وما يبدو بديهيا الآن قد تحوّل إلى عكسه وبالتالي هذا التوافق الممكن بين المعلوم والحاصل التحليلي يبقى إن وجد ظرفيّا ، غير مقلّل من أهمية النتيجة التي يبثّها مبحث تمثّل الذوات الاجتماعية لفضائها الخاص الذي تشغله. فالجيل الثاني "لبَلْدِيَةْ" الحفصية يتمثّل الدار كمأوى بدرجة أولى أي خارج شحنته الرمزية ثمّ بدرجة ثانية كعالم خاص أكثر منها ذاكرة حيّة. وإذا ما قرنّا هذا الاستنتاج بنزعة الجيل الثاني لتحديث الواجهة في اتجاه يحتفظ بصلة ما بالتقليدي التي تتجسّد مثلا عبر تحديث الباب التقليدي مع الاحتفاظ بالطابع الحاجزي البصري أو العازل لسور الدار أو واجهتها ، نقف على ملاحظة هامّة جدّا تتّصل بما أسميناه بالانفتاح الحذر أو الانغلاق المرن كسلوك استراتيجي تواصلي مع الفضاء العام عبر الفضاء الخاص .

توظّف ، هذه الفئة كما أسلفنا ، واجهة الدار أي الظاهر من " خاصّها " في اتجاه يمظهر استراتيجية اندماجها في فضائها العام/المشترك . فهي لا ترغب أن تقدّم صورة عن كونها امتداد للسلف أو شاهدة على ماضي المكان لكنّها في المقابل لا تريد أن تنفصل أو هي لا تنفصل أصلا عنه. إنّنا أمام فعل قصدي

موجّه للسلوك الفضائي لهذه الفئة نحو رسم شخصيتها المدنية كما تتصوّرها وتطمح إلى الإيحاء بها فضائيّا للآخرين الذين تتفاعل وتتواصل معهم. يتجسّد هذا الفعل العقلاني الذي هو فعل استراتيجي [16] ، رمزيّا بما أنّه يتّخذ من واجهة الدار أي الفضاء المادّي لغة تعبّر بها عن تصوّرها لذاتها وللفضاء العام/المشترك (الحي، الحومة، النهج، الزقاق ...). يوجد ميشال بانسون Pinçon صلة بين المسكن وأنماط الحياة. ويعتبر أنّ الفرد يدّل عبر الممارسة رمزّيا عن انتمائه للجماعة وفي ذات الوقت " يوجد عينيّا هذه الجماعة" [17] لكن لا نقول ، هنا ، أنّ الفرد يدلّ عبر الممارسة رمزيّا عن انتمائه للجماعة كما يتصوّره أو كما يريده. ينقلنا هذا التعبير من العلاقة التحديدية التي تجعل من الفضاء انعكاسا لهذا الانتماء إلى علاقة جدلية يتداخل ضمنها الإيتوس الموجّه للفعل الاجتماعي للأفراد وجانب الحرية والعقلانية الفردية التي تجعل من الفضاء لا مجرّد قناة تواصل مع الأنا الجمعي Moi Collective أو مع الآخرين بل ترجمة لهذه الاستراتيجية الاندماجية ضمن الفضاء المديني .

تظهر هذه الاستراتيجية الاندماجية تداخل التقليدي والمعاصر، الأصالة والتجديد، المحافظة والتحرّر، هي تصوّر يتجسّد في واجهة الدار للصورة الاجتماعية التي توحيها أو ترمز لها الدار في معماريتها ونمطها المدخل عليه هذه المراجعة من ناحية وصورته لذاته بالماضي والحاضر. فالإنسان لا يتصرّف" كاقتصادي سليم التفكير من غير احتياجات وعواطف ورغبات" [18] ،حسب ألونزو ، بل يستجيب فعله كما يقول فيراي Firey لمطالب ثقافية "تفرضها قيم ومعايير ومفاهيم " [19] شاغلي الفضاء الحضري. إلاّ أنّه يتصرّف، من وجهة تفكيرنا، بالنظر إلى أهداف تجعل من فعله في الفضاء (الخاص والعام) فعلا ثقافيّا واجتماعيا وعقلانيّا يتداخل ضمنه الجماعي والفردي ، الواعي واللا واعي، المادي والثقافي .

تصنع هذه الاستراتيجية الاندماجية للجيل الثاني "لبلدية" الحفصية التي أسميناها بالانفتاح الحذر والانغلاق المرن ، مقياسا لإستراتيجيات الفئات الأخرى، حيث تبيّن ممّا سلف أنّ الفئات المشكّلة بالنظر لمتغيّرات البحث تتغاير استراتيجيات اندماجها في فضائها المديني التقليدي أو الجديد بالنظر إلى نمط التمفصل الذي توجده بين الانفتاح والانغلاق (الجسر والباب لدى زيمل Simmel) أي التجذّر في الهوية التاريخية للفضاء التقليدي للحفصية أو مدى ودرجة الابتعاد عنها والأخذ بالحديث. فإذا استحضرنا " البلدية " الجدد نجد أنّهم لا يحتفظون بذات التمفصل ولكن لا تختلف معه نوعيّا، فهم يتّجهون إلى تغليب جانب الحديث على التقليدي في مستوى الواجهة أي المعطى للآخر مثلما الداخل أي المعطى للذات. فالتقليدي يسجّل حضوره ،إذا ، على صعيدي الخارج والداخل من فضائهم الخاص وعلى مستوى المعماري والجمالي مثلما المورفولوجي والممارسة ، لكن ذلك يتغاير أي يقلّ أو يتكثّف بالنظر إلى متغيّرات المستوى المادي والأصول الفضائية ونوعية الفضاء العام الذي تتموقع ضمنه داخل الحفصية (جديد أو تقليدي) . فـ"البَلْدِيَة " الجدد من الفئات الأكثر حظّا ماديّا وشاغلي الأحياء الجديدة هم أكثر ميلا إلى التماثل مع العام والمشترك، بمعنى أنّهم أقلّ نزعة إلى مراجعة وتعديل واجهة الدار. تتكثّف هذه النزعة إذا انتقلنا إلى الأحياء القديمة حيث نجد خليطا لا متجانسا معماريا وجماليّا (أشكال الزخرفة الفنية لواجهة الدار أو الشقّة مثلا) لا على صعيد الحيّ فحسب بل أحيانا كثيرة على مستوى المنزل أو المسكن الواحد. فلا بجب أن نقرأ ذلك على أنّه تعيين مادي للذوق أو تجسّد فضائي لمتعدّد الأذواق حتّى وإن كان من الصواب الوصل بينها إلاّ

أنّ ذلك لا يشكّل تفسيرا للظاهرة. فالسوسيولوجيا الحضرية مدعوّة كما أسلفنا إلى قراءة تأويلية لسلوك الفاعل لتعقّل المعنى الذي يعطيه لفعله والهدف الذي يوجّه فعله في فضائه الذي هو فعل في ذاته.

فالتمثّل والقيم والمعايير الجماعية المستبطنة والموجّه لسلوك الأفراد الاجتماعي تتجسّد في استعمالاتهم وكيفيات شغله. لكن واجهة الدار هنا هما لوحة أو مشهد يتداخل ضمنها الجماعي والفردي، الثقافي والمادي الواعي واللا واعي والتوجيه القيمي للفعل والتوجيه العقلاني . يحيل التوجيه العقلاني إلى جانب القصد في الفعل وبالتالي استراتيجية الاندماج ضمن الفضاء المديني. فالصورة التي تبثّها واجهة الفضاء التي هي نتاج فعل المراجعة أو التعديل أو حتّى عدم الفعل ، هي ما يريد أن يبثّه شاغل الفضاء الحالي إلى الآخرين أي ما يجسّد الجانب العقلاني في كيفية شغله لفضائه .

تتعمّق قناعاتنا بضعف التناول الأحادي أو التفسير المستند لمتغيّر وحيد في تعقّل وفهم الظواهر الحضرية. فمتغيّرات البحث تتداخل كعوامل موجّهة ومفسّرة لسلوك الفاعلين المدينيين انطلاقا من توظيفها المتغاير لفضائها الخاص / الداخل ومورفولوجيته . هذا الخاص، إذا، هو محو ر العلاقة بين الذات وذاكرتها وبينها وفضائها الاجتماعي هو جسر بالمعنى الزيملي وباب أي الارتباط والانفصال، الانفتاح والانغلاق. يتّخذ تمفصل العلاقة أشكالا تحيل إلى جماعات معيّنة. فلكلّ جماعة اجتماعية موقعها ووضعيتها التي تتصرّف بالنظر إليها. ويحيل تصرّفها هذا الذي يقرأ عبر معاشها الفضائي اليومي إلى تمثّلاتها وتصوّراتها وذاكرة الفضاء الخصوصية مثلما إلى آمالها وطموحاتها التي تتحدّد كأهداف تصيغ الذوات الاجتماعية استراتيجيات متعدّدة. يشكّل استعمالها لفضائها الخاص وفعلها في الخارجي منه أي واجهته بمتعدّد مستوياته وحدة التأويل لفهم وتعقّل هذا التوجيه العقلاني لفعلها في فضائها.

خاتمة :

يقارب الاستعمال أو الاستخدام بالنظر إلى ثنائيات : الخاص والعام / الداخل والخارج/ الظاهر والضمني/ الفردي والجماعي ، لدى متعدّد الجماعات المصاغة اعتماد على متغيّرات :أقدمية التواجد بالفضاء /الأصول الريفية لسكّان الحفصية / المستوى المادي (اعتماد دخل الأسرة مجتمعة لا رئيس العائلة فقط) / نوعية النشاط المشغول (أحياء قديمة أو أحياء جديدة) والجنس (ذكر/ أنثى) والفئات العمرية. ولم يكن المقصود البحث عن مكوّنات كميّة أو وصف السلوك المديني لكل فئة من الفئات المشكّلة لعيّنة البحث، بقدر ما كان القصد استغلال وتوظيف تلك النتائج في مقاربات تسمح باختبار فرضيات البحث. لم يكن المبتغى يتمثّل في تحديد أي المتغيّرات تأثيرا في انتهاج الذوات الاجتماعية لسلوك ما كأن نقول مثلا أن التعلّم هو عامل مفسّر لضعف اندماج المتحصلين على تعليم أدنى، في فضائهم التقليدي أو لنزعة تحديث الفضاء الخاص. ما يهّم هو استنتاج كيفيات التمفصل بين الداخل والخارج لدى كلّ جماعة اجتماعية لتحليل اندماجها في فضائها المديني . فكلّ شكل من أشكال التمفصل بين الداخلي والخارجي من الدار يكشف عن صورة للذات وللآخر ضمن الفضاء المشترك كحقل تبادل للرموز الاندماجية والتواصلية ، وعن استراتيجية اندماج متبنّاة من قبلهم .

إنّ هدف التحليل السوسيو–مورفولوجي هو اعتماد هذه النتائج كمادّة لتعقّل فعل الذوات الاجتماعية في فضائها والدلالات الرمزية والثقافية والاندماجية لهذا الفعل وانعكاساته على الحاصل المديني (واقع

المدينة من زاوية الاستعمال لا القائم) . لن نعيد هنا نتائج البحث لكن نقول أنّ التحليل مثلما الملاحظة الميدانية بين صحّة فرضيات البحث في اتجاه يخلّص الظواهر التي تطرحها المدينة اليوم ، من التحليل الماكرو–سوسيولوجي الذي يطرحها كتمظهر للبنية الاجتماعية ولعلاقات الإنتاج المهيمنة في المنظومة الاجتماعية .

لا يمكن الحديث عن طبقية بمعناها الصحيح في المدينة التاريخية والتي منها الحفصية بقدر ما نتحدّث عن شرائح اجتماعية. هذا من ناحية أمّا من ناحية أخرى فالفاعل لا يحتمل مقاربته كعون للمنظومة الاجتماعية بل إنّ معاشه الفضائي الذي يشكّل مادة التحليل يكشف عن ممارسات مقاومة ورفض وعن عقلانية ما ، يستبطن الفضاء أبعاده ويتحمّل آثاره. فالفرد لا نقاربه كسجين لوضعيته بل فاعلا فيها ولو أنّ فعله يتحدّد بالنظر إليها الفرد هو حزء من معادلة التنمية لا رقما فيها. يمارس الفاعل تأثيرا في مسار التنمية بكيفيات مختلفة الآثار والنتائج وبدرجات متفاوتة على متعدّد الأصعدة .

لنفهم المدينة كما تنعكس في الملاحظة المباشرة يصبح البعد الثقافي للتنمية الحضرية ضرورة تقتضي من سوسيولوجيا التحضّر استدعاء الممارسات الفضائية للذوات الاجتماعية. فعبر الاستعمال أي كيفيات شغل الفضاء الخاص التي تحيل، كما أسلفنا، إلى أنماط حياة وتصوّرات وتمثّلات ودلالات تتمظهر في البعد المعماري والفنّي والجمالي للدار التي تتموقع كواسطة أو قناة تواصل بين الذوات الاجتماعية وذاكرتها الجماعية ولكن أيضا مع الفضاء الاجتماعي المشترك أو المعيّ للاشتراك. ضمن الدار وعلى مستوى الظاهر منه أي الواجهة ، تقرأ تأويليّا ،استراتيجية اندماج شاغله وتصوّره لذاته ولفضائه المديني وموقفه منه. فلا يمكن للشكل المعماري للدار التي تلغي العلاقات: وجه لوجه بين الخارج/العام والداخل/ الخاص إلاّ أن تكون تدليل رمزيّ على موقف شاغله ومفتعل هذه الهيئة لواجهة الدار وسورها الأمامي، مثلا، من فضائه المديني وما يقترحه من محافظة أو تجديد. إنّ اتجاه التغيّر يمثّل مصدرا لسلوك المقاومة التي تبديها الذوات وتتعيّن ماديّا في الفضاء الخاص أو انخراط في تيّاره. لكون الفاعل يقرأ أيّ جديد من منظوره الخاص وبالنظر إلى موقعه ومكانته وأهدافه ويصيغ بالنظر إليه استراتيجية اندماج توافق تأويله وتعقّله لهذا الجديد .

الهوامش

1. – نفس المرجع ، ص 165 .
2. –المدينة القديمة التونسية أسسها العرب المسلمون في القرن الثامن للميلاد، وكان موقعها فوق ربوة على المتوسط يؤهلها كي ترث جارتها قرطاج العاصمة الفينيقية. هكذا تحولت تونس القرية البربرية في العهود القديمة، ثم القلعة الدفاعية الحصينة في العهود العربية وحكم الاغالبة، الى مركز امارة محلية، دام حكمها زهاء قرن من الزمن. وقد ضم الموحدون تونس عام 1160م الى دولتهم الكبيرة المستقرة بمراكش والممتدة من المغرب الاقصى الى طرابلس الغرب، فجعلوا منها عاصمة ولاية افريقيا. واخيرا تحولت الى حاضرة الدولة الحفصية 1229 – 1574م فكانت مع صقلية يفصلهما مضيق عرضه 140 كلم تتحكمان بالعبور بين غرب البحر الابيض المتوسط وشرقه . و الحفصية او الحارة او الخربة هي احدى احياء المدينة التقليدية والتي اشتهرت بتنوع نسيجها العمراني وبنيتها الاثنية حيث تم اسكان اليهود بتشجيع من الولي الصالح محرز بن خلف . وقد خضعت هذه المنطقة الى مشاريع ترميمية لنسيجها العمراني

ومورفولوجيتها التقليدية والى مشاريع توسعة عبر ازالة البناءات المهترئة واعادة *بنائها* وفق الطراز المعماري المميز للحارة .

3. -Bouchrara Zanned (T.)، Tunis une ville et son double, MTE, 1995, p. 13.
4. - Maffesoli (M.)،La conquête de présent، Paris puf، 1979، p.74.
5. -Bouchrara Zanned (T.)، symboliques corporelles et Espaces Musulmans، Cérès prod، 1984، p. 11.

6. –هذه الجغرافيا يمكن تسميتها ، مع طابعها الروتيني ، بالجغرافيا اليومية لكن لا يمكن استعارة عبارة الجغرافيا الإرادية لجون لاباس jean Lapasse على اعتبار أن عناصر الجغرافيا اليومية لا تحيل دائما إلى الإرادي.
7. – يقصد بِبَلْدِيَةْ اقدم سكّان مدينة الحفصية كمدينة عربية اسلامية تقع داخل الأسوار المحيطة بها وحيث يسمى من تم رفض اندماجهم ضمن فضاء المدينة " بالبراينية " الذين كوّنوا احياء خارج الأسوار. اما ما يتصل بتصنيف الجيل الأول هم متساكني المنطقة لأكثر من 50 سنة ونقصد بالجيل الثاني ساكني المنطقة بين 25 و49 سنة وبالجيل الجديد او الثالث شاغلي فضائهم الحالي بالمنطقة لأقل من 25 سنة .
8. إنّه تواصل رمزي يتّخذ من الواجهة مادة لصياغة دلالات عن الذات أو صورة حقيقية عن نمط حياته ضمن الداخل أو تكون بالضرورة ترجمة فعلية له. تتخذ إذا بعدا تضليليّا له دلالات اندماجية . فالصورة التي تعكسها الواجهة عن شاغل الفضاء الخاص هي ما يريد ويقصد تمريرها إلى الآخرين عن نفسه. هذا السلوك نلاحظه لدى الجدد مثلما الجيل الثاني من اصيلي المنطقة كما سيتّضح ذلك فيما بعد.
9. وهم شاغلي فضاءاتهم منذ ما يقارب 25سنة {فئة عمرية ما بين 12 و 25 سنة}،
10. – يقصد بالبلورة احداث تغيرات في الفضاء الخاص الذي هو المسكن ، سواء على مستوى مورفولوجية الدار او على صعيد الواجهة الأمامية او على المستوى الفني والجمالي ...
11. -chevalier (D.) ،L'espace social de la ville arabe ، paris، Maisonneuve et la rose ، 1979 ، p. 107 .
12. -La basse(J.), L'organisation de L'espace, éléments de géographie volontaire، paris، éd Hermann, 1971، p. 284.
13. -Bouchrara Zanned (T.) ، La ville Mémoire ، paris، éd méridiens Klinck sieck، 1994 ، p .74.
14. –حجازي (عزّت .) ، زكي بدري (أحمد .) ، معجم مصطلحات علم الاجتماع : المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ،1974، ص 60 .
15. -Halbwachs (M.) ، La Mémoire collective ، paris puf ، 1950 ، p. 50 .
16. -Hogue (j.p.) ، op cit ، p.62.
17. -Revue Française de Sociologie،oct/déc,1981، XXII، N°4, Art، Michel Pinçon،L'habitat et Modes de vie، p. 50.
18. -مهدي الشويحات (حبيب.) ، ندوة المدن الجديدة ، منظمة المدن العربية ، المعهد العربي لإتّحاد المدن ، 1993، المجلّد الأوّل ، ص 165 .
19. – نفس المرجع ، ص 165